# بين الحرب والجغرافيا

## الخطط الكبرى فى الحرب العالمية الأخيرة

يميز العسكريون فى دراسة الحرب بين الخطط التكتيكية والخطط الاستراتيجية . وهم يقصدون بالأولى خطط الحرب التى تتصل بحركات الجند المحلية فى الميدان ، وتوجيهها حسبما تقضى به فنون الحرب ، وظروف الطبيعة ، وحاجات القتال من يوم ليوم ، أو من ساعة إلى أخرى ؛ ويتولى وضع هذه الخطط والقيام على تنفيذها قواد الميدان وضباطه المحاربون . أما الخطط الاستراتيجية فيقصدون بها رسم سياسة الحرب الأساسية ، وإدارة دفتها فيما يتصل بمناطق الارتكاز الكبرى ، والمواقع ذات القيمة العسكريه الحيوية ؛ ومن حيث خطوطها واتجاهاتها الأساسية فى توجيه الحركات الكبرى فى الهجوم أو الدفاع . ومثل هذه الخطط الاستراتيجية كثيراً ما يشارك فى وضعها رجال الدولة من غير العسكريين ؛ فرسمها يحتاج إلى أفق أوسع من الأفق العسكرى الخالص ؛ كما أنها تتصل بتنسيق أداة الحرب كلها تنسيقاً يشمل مختلف مرافق الحياة الإنتاجية ، ويوجه عمليات الحرب فى ميادين متباعدة أشد التباعد ، تشرف عليها — فى حالة الحروب العالمية الحديثة — أكثر من دولة واحدة ، ويتوقف النجاح فيها على عوامل كثيرة ، بعضها سياسى يتصل بالمعاهدات والمحالفات والاتفاقات السرية والعلنية ، وبعضها اقتصادى يتصل بالإنتاج والتموين والنقل وتبادل المعاونة ، وبعضها الآخر معنوى يتصل بالمبادئ والمُثُل العليا فى السياسة ونظام الحكم وفى الدين والاجتماع عند مختلف الأمم والشعوب .

ومهما تكن تلك العوامل التى تتصل برسم خطط الحرب الأساسية ، فإن العهد الحديث قد امتاز بأن العلم أصبح فيه يوجه حياة الإنسان ونشاطه بما فى ذلك الحرب ذاتها ، وهى لا تعدو أن تكون مظهراً عنيفاً من مظاهر النضال والكفاح من أجل بقاء الأصلح . ولذلك فقد اتصلت أداة الحرب

وإدارتها بألوان مختلفة من العلم والتنظيم العلمى ؛ وأصبح لزاماً لكى تنجح الحرب أن يسبقها ويصحبها تنظيم فنى دقيق يستند إلى أسس علمية وعملية فى الوقت ذاته . فالحرب الحديثة تعتمد على السلاح الذى لا ينتجه غير العلم والتطبيق الفنى للمعرفة العلمية ، كما تعتمد على دقة التنظيم وحسن التوجيه فى استخدام ذلك السلاح الذى لا يفيد مضاؤه إلا إذا استعمل فى اتجاهه الصحيح ، وفى حدود خطته المرسومة . وفوق ذلك كله فقد زاد من اعتماد الحرب والتسلح على العلم والمعرفة والمهارة الفنية وحسن التنظيم والتنسيق أن الحرب قد أصبحت فى العصر الحديث « شاملة » للحياة المدنية فى جميع مرافقها ، وأصبح المحاربون فيها لا يقتصرون على أولئك الذين يقفون فى الصف الأول وفى جبهة القتال ، وإنما يشملون أيضا أولئك الذين يعملون فى الإنتاج والنقل وتنظيم الأداة والإدارة فى المدن والمصانع وفى الحقول والمناجم ، بل وعلى طرق البر والبحر والهواء . ولذلك كله فإن تنظيم الحرب أصبح معناه تجنيد الحياة القومية كلها . وفى هذا العهد الذى أصبحت فيه السلم استعداداً وانتقالا إلى الحرب صار لزاماً أن يشمل التخطيط والتنظيم والتوجيه حياة الأمم فى السلم والحرب على السواء .

على أن ما يعنينا فى هذا المقال إنما هو أن نحاول تتبع الحرب العالمية الأخيرة فى خططها الكبرى من ناحية التنفيذ وإجراء الحرب ذاتها ، وتوجيه حركات الهجوم والدفاع من الجانبين توجيها يتمشى مع ظروف الطبيعة والمواقع الجغرافية ، ويعين على كسب الحرب فى النهاية . ومن المتفق عليه بين العسكريين أن الحرب العالمية الأخيرة جاءت فى جولتين ، فصلت بينهما فترة استجمام واستعداد بين الهدنة فى عام ١٩١٨ واستئناف القتال فى عام ١٩٣٩ . بل إن من المتفق عليه أيضاً أن هذه الحرب بجولتيها إنما ترجع فى الأصل إلى دوافع تتصل بنهضة ألمانيا الحديثة وسعيها إلى أن تستكمل أسباب قوتها وسلطانها بين جاراتها الأوربية من جهة ، وإلى أن تتوسع فيما وراء البحار وتنتزع السيطرة العالمية من بريطانيا سيدة البحار من جهة أخرى . ولذلك فإن خطط الحرب فى الجولتين وما سبقهما وتوسطهما من فترات استعداد إنما هى خطط ترمى إلى غاية مرسومة ومحددة ، هى السلطان فى أوربا والسيطرة فيما وراء البحار ! ولذلك فإنه على الرغم من اختلاف ظروف الحرب فى الجولة الأولى عنها فى الجولة

الثانية ، فإن هناك عناصر مشتركة بين الجولتين لا يمكن إلا أنه يلمسها الباحث الذى يعنى بالأساس والجوهر قبل أن يعنى بالعرض والمظهر .

وقد بدأت ألمانيا استعدادها للحرب والنضال ضد بريطانيا فى مطلع القرن الحالى ، فدعمت مركزها فى القارة ، لا سيما قلبها وجنوبها الشرقى ، ووثقت صلاتها بإمبراطورية النمسا والمجر القديمة وكذلك بإيطاليا ، وكونت كتلة قوية من دول الاتحاد الثلاثى وأنصارها . ثم سعت فى الوقت نفسه إلى تقوية أسطولها وإعداده للنضال المقبل من أجل سيادة البحار . ولكنها من هذه الناحية كانت أعجز من أن تعد أسطولا يعادل أسطول بريطانيا ، التى كان لها من التقاليد البحرية والخبرة بالملاحة وحرب البحار ما تجمع خلال أجيال طويلة ، كما كان لها من أساطيل التجارة والحرب ما لا يمكن أن يبنى مثله ولا أن يعد رجاله إلا فى فترة طويلة من الزمن . ومع ذلك فقد أحست بريطانيا بمصدر الخطر والمنافسة الجديدة ، فضاعفت جهودها فى الاستعداد البحرى ، كما أخذت سبيلها إلى إنشاء محالفات أوربية تناظر ما سعت إليه ألمانيا فى قلب القارة . وكان أن حالفت بريطانيا فرنسا فى الغرب ، كما حالفت الروسيا فى الشرق ؛ وسعت الدبلوماسية البريطانية إلى أن تقطع السبيل على ألمانيا فى زحفها السياسى والاقتصادى نحو جنوب القارة الشرقى وأرض الإمبراطورية العثمانية .

تلاحقت الحوادث واقترب الخصمان الأصليان من أن يقفا وجها لوجه ؛ وتطاير الشرر وكاد يشتعل لهيب الحرب أكثر من مرة . وكان أبرز إنذار جدى بالحرب حادث أجادير فى عام ١٩١١ ، عندما شخصت قطع من أساطيل الطرفين إلى ذلك المرفأ الصغير على ساحل إفريقية الشمالية الغربية ، وظهر التحدى الذى لا يمكن أن يكون وراءه غير الشر ، ولا يمكن أن ينتهى إلى غير الصدام ! . . وهكذا لم يعد إشهار الحرب الفعلية إلا مسألة زمن وانتهاز للفرص .

وجاءت الفرصة فى وقت أحست فيه ألمانيا وأنصارها ، أو خيل إليهم ، أنهم قد استكملوا الاستعداد ، وأن من الخير أن يبدءوا النضال قبل أن يتجمع لحلفاء الغرب أكثر مما تجمع لديهم من قوة ، بل قبل أن يتخذ هؤلاء الحلفاء عدتهم كاملة وحذرهم شاملا ، بعد أن تكررت عليهم النذر ، وتوالت قرائن الشر من المعسكر الجرمانى النمساوى . وهكذا شهرت الحرب ؛ وكان طبيعيا

أن تشتعل أول الأمر فى أرض البلقان ، تلك المنطقة التى تختلط فيها القوميات وتتنافر المصالح ، وتجرى تيارات السياسة الدولية فى كل اتجاه . كما كان طبيعيا أن الحرب متى بدأت واشتركت فى إثارتها دولة كبرى كامبراطورية النمسا ، فلن يكون إلى حصرها من سبيل . ولا بد من أن تنتشر لتشمل أوربا كلها : فالحدود السياسية بين الدول فى هذه القارة يصح أن يكون كثير منها مثار نزاع ؛ لأنها لا تتمشى مع الحدود الطبيعية ، ولا مع توزيع السلالات والقوميات ، ولا مع ما لكل دولة من مجال اقتصادى حيوى . وبذلك فقد كان الجو مهيأ لأن يشارك المتذمرون — وما أكثرهم ! — فى حرب أقل ما يقال فيها إنها تشبع رغبة نفسانية ، وتعلل الشعوب بآمال لم تحققها السلم ولا وسائلها السلمية ، فعسى أن تحققها الحرب وما تنتهى إليه من نصر يطمع فيه الجميع !

وتطورت الحرب سريعاً ، واتضحت خططها ، فصار لها ميدانان : أحدهما غربى والآخر شرقى . وفى الغرب اتجهت ألمانيا صوب أراضى بلچيكا فى السهل الجنوبى من الأراضى الواطئة ، رغم أن المعاهدات الدولية كانت تضمن استقلال تلك البلاد . ذلك أن طريق الأردن والفلاندر كان طريق الغزو التاريخى لمن يريد أن يأخذ فرنسا من أيسر سبيل ، ولمن يريد أن يقف فى مواجهة بريطانيا ، ويتخذ لنفسه قواعد بحرية لحرب الغواصات وحصار الجزر البريطانية وقطع طرق البحر التى هى كحبال الوريد بالنسبة لبريطانيا . ومع ذلك كله يظهر أن ألمانيا لم تكن مستعدة الاستعداد كله عند ما أقدمت على هجومها هذا ؛ فهى من ناحية البر لم تستطع أن تبلغ هدفها وهو باريس ، وإنما وقفت دونها من الشمال الشرقى ، حتى جاء چوفر وهزم طلائع جيوشها هزيمة منكرة فى موقعة المارن فى مطلع الحرب ، على بعد عشرات قليلة من الكيلو مترات من العاصمة الفرنسية ، ورد فريقا من الألمان على أعقابهم ، كما أجبر قواتهم الأساسية على أن تحفر خنادقها لتقيم فيها اتقاء للارتداد . وبالتدريج تحولت حرب الميدان الغربى من حرب متحركة على سطح الأرض إلى حرب خنادق ، ترابط فيها الجيوش تحت الأرض ، ولا تتحرك الجبهة إلا زحزحة من أحد الجانبين أو الآخر لمسافات قصيرة لا تذكر . فكأن الحرب فى هذا الميدان قد شُلّت حركتها ، وتقرر مصيرها أن تصبح حرب مناوشات طويلة الأمد ، تستنفد الجهد ولا تؤدى

إلى نتيجة سريعة . وقد بقيت كذلك بل بقى هذا الميدان الغربى أتوناً يلقى فيه الجانبان برجالهم الفرقة تلو الفرقة ، فيحصدها الموت دون أن يستطيع أحد الجانبين أن يحقق نصراً يذكر . ولم ينقذ الموقف آخر الأمر إلا انحلال الروح المعنوية ، ثم قيام الثورة الداخلية فى ألمانيا عام ١٩١٨ ، مما استتبع انسحاب جيوش الألمان عن مواقعها فى الغرب ، وتقدم الحلفاء فى نصر غير صريح من الناحية العسكرية الخالصة ، ولا مسلم به من جانب الجيش الألمانى وقادته على الأقل . وهكذا انتهى الأمر « بهدنة » ربما كان مرجعها ضيق النفوس بالحرب ، وسأمها من عدم الوصول إلى نتيجة فاصلة ، أكثر مما كان مردها إلى نصر حاسم من جانب الحلفاء . وقد ارتدت جيوش ألمانيا البرية إذ ذاك إلى ديارها فى نظام عجيب .

فأما من ناحية البحر فيظهر أن استعداد ألمانيا أيضا لم يكن كاملا . فقد حرصت بريطانيا فى الفترة السابقة للحرب على أن يكون أسطولها معادلا لمجموع أسطولى أية دولتين أوربيتين معا . ولذلك بقى الفرق كبيرا فى القوة بين أسطول بريطانيا وأسطول ألمانيا . ولم تستطع قوات ألمانيا البحرية أن تبلغ نتيجة فعلية أو فاصلة فى شل حركة الملاحة من حول بريطانيا ، وإجاعة أهلها أو إرغامهم على التسليم . ومع أن ألمانيا قد اتجهت منذ البداءة نحو إنشاء أسطول قوى من الغواصات وبثه حول بريطانيا ، فإن هجوم تلك الغواصات لم يبلغ ذروته من القوة إلا فى عام ١٩١٧ . ومهما قيل عن أن بريطانيا قد شارفت على الهلاك والتسليم فى ذلك العام ، فإن الشئ المهم أنها قاومت ، وأن عدم استطاعة ألمانيا أن تبلغ شأو هجومها البحرى على قوافل السفن وطرق الملاحة قبل ذلك اعطى بريطانيا الفرصة لإتمام الأهبة ومواجهة الهجوم بما انتهى إلى إحباطه . . . ولقد كان عامل الزمن على الدوام فى جانب البريطانيين !

كل هذا حدث فى الغرب ، وقد كان الميدان الأصلى والأهم فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . فأما فى الشرق فقد تقدم الروس سريعاً فى أرض بروسيا الشرقية ؛ ولكن الألمان مالبثوا أن هزموهم شر هزيمة على يد قائدهم هندنبرج ؛ كذلك تقدمت جيوش الروس ثم ارتدت فى أراضى غاليسيا وعلى حدود إمبراطورية النمسا والمجر ، ثم أصيبت تلك الجيوش بخسائر فادحة فى عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ ؛ وساعد ذلك على قيام ثورة البلاشفة . ومع أن ذلك كان مما يجوز أن

يطمع الألمان والنمساويين ، وأن يغريهم بجارتهم العتيدة ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بقدر ؛ فهم كانوا فيما يبدو مشغولين بالحرب فى الغرب والجنوب . وعلى كل حال فان الحرب فى الميدان الشرقى ما لبثت أن دخلت فى مرحلة ركود ، انتهت بانكماش الروسيا وانطوائها على نفسها ، بعد أن وجد البلاشفة أن من الخير أن يعكفوا على إصلاح الحال فى بلادهم ، وأن يدعوا الرأسماليين والاستعماريين يدق بعضهم أعناق بعض فى ميادين الغرب والجنوب .

وفى جنوب أوربا كان هناك الميدانان الإيطالى والتركى . ففى أرض إيطاليا كانت تلك الدولة ، إلى حد ظاهر ، عالة على حلفائها ، أكثر مما كانت عوناً لهم . فقد وقفت إيطاليا متذبذبة فى أول الأمر ؛ رفضت أن تحارب فى جانب حلفائها الأسبقين ، وهم الألمان والنمسويون ، بحجة أنهم بدءوا الحرب بالهجوم ، ولم يكن حلف الاتحاد الثلاثى المعقود فى عام ١٨٨٢ ليقيدها بمد يد المعونة إلا فى حرب الدفاع . ومع ذلك فهى لم تقف فى جانب حلفاء الغرب صراحة إلا بعد مداولات ومداورات وشروط تضمنتها معاهدة لندن السرية فى عام ١٩١٥ . وأخيراً دخلت إيطاليا الحرب فإذا بجيوشها تتذبذب بين النصر والهزيمة ؛ ثم إذا بها تحتاج إلى العون لدرء الهزيمة ، ولمنع النمسويين من الالتفاف وأخذ الميدان الفرنسى من الجنوب . وقد أدرك حلفاء الغرب ارتباط الميدان الإيطالى بالميدان الغربى من الناحية الاستراتيجية ، فأمدوا إيطاليا بالعون ، وساعدوها على حماية جناحهم ضد النمسويين حتى حانت ساعة النصر .

أما فى الميدان التركى فقد تعقدت الأمور ، واستمر النضال سجالا فى البر والبحر . وكان الألمان قد أدركوا قيمة الشرق الأوسط فأتوه من بابه فى القسطنطينية ، وسندوا قوات تركيا المتداعية . ولكن الحلفاء كانت لهم قواعد هامة فى ذلك الشرق ، لا سيما فى مصر التى ما لبث البريطانيون أن توسعوا منها إلى البلاد العربية ، حيث استغلوا ثورة العرب ضد الأتراك . وانتهى الأمر بانقشاع نفوذ العثمانيين وزوال سلطانهم ، وحلول نفوذ الحلفاء ، لا سيما بريطانيا محل الدولة العثمانية فى كثير من أرجاء العالم العربى . والمدهش أن الحرب الأصلية انتهت فى أوربا ، ومع ذلك فقد استمر الحلفاء الإنجليز والفرنسيون لعامين أو ثلاثة يحاربون لتوسيع نفوذهم وتثبيت أقدامهم فى أراضى العرب بعد أن أبرزت الحرب قيمة تلك البلاد ومواقعها فى ربط طرفى العالم .

وكان هناك ميدان آخر منعزل فى تلك الحرب هو ميدان المحيط الهادى. فقد ارتبطت اليابان ببريطانيا بمحالفة عسكرية منذ عام ١٩٠٢؛ وتعلم اليابانيون كثيراً من شؤون التجارة والاتصال بالعالم الخارجى من حلفائهم ومعلميهم البريطانيين؛ وتعلموا منهم كذلك فنون الحرب البحرية وقيمة الأساطيل الحديثة بالنسبة لإمبراطورية من الجزر، تريد أن تنشر نفوذها وأن تكون لها السيطرة على ما حولها من بحار. وقد بادرت اليابان بإعلان الحرب على ألمانيا، ثم انطلقت بأساطيلها وقواتها البحرية فطردت الألمان من كثير من جزر المحيط، وحلت محلهم فى مناطق النفوذ العسكرى والنقط الاستراتيجية الهامة فى تلك الجزر؛ ثم احتفظت لنفسها بالانتداب عليها بعد الحرب، واتخذت منها قواعد توثبت منها فى حربها الأخيرة ومحاولتها التوسع على حساب حلفائها السابقين.

من هذا العرض السريع نستطيع أن نتبين أن خطط القتال فى الجولة الأولى من الحرب العالمية كانت تدور، إلى حد كبير، حول التنافس الأصيل بين بريطانيا وألمانيا من أجل السيطرة على اتصالات أوربا بالعالم الخارجى. ولم تخسر ألمانيا تلك الجولة لأنها انهزمت فى البر؛ فجيوشها بقيت إلى النهاية منتصرة فى الميدان الشرقى، انتصاراً سجلته معاهدة برست لتوفسك مع الروس فى عام ١٩١٨؛ وجيوشها لم تنهزم فى الغرب انهزاماً ماحقاً، بل إن معارك الحرب البرية لم تدر فوق أراضى ألمانيا ذاتها، وإنما كانت فى خارجها، وبقيت كذلك حتى تراجعت جيوش الرايخ إلى أرض الوطن، غير مطاردة ولا مختلة النظام. وقد خسرت ألمانيا الجولة لأنها لم تتخذ من قوة البحر وقواعده ما تستطيع به أن تخنق بريطانيا عدوها الأصلى.. بل عدوها الذى استطاع أن يؤلب من حوله الأنصار والحلفاء فى الغرب والشرق، وفى العالمين القديم والجديد، فاشتمل معسكر بريطانيا وحلفائها على حكومات تمثل ١٤٣٠ مليون من سكان العالم، على حين لم يبق فى معسكر ألمانيا غير حكومات تمثل ١٦٠ مليون فقط. وهكذا لم يكن النصر غير مسألة زمن؛ حتى إذا انهارت جبهة ألمانيا القومية فى الداخل جاء النصر كالثمرة هزتها الريح فسقطت، وكان سقوطها فى الميدان الغربى.

وانقضت الفترة ما بين الهدنة فى عام ١٩١٨ وإعلان الحرب فى الجولة الثانية عام ١٩٣٩. ولما كانت الحرب فى جولتها الأولى لم تصل إلى نتيجة فاصلة، فإن

الدوافع الأولى والعوامل الأساسية التى أدت إلى الحرب فى عام ١٩١٤ ما زالت باقية . فأوربا قارة صغيرة ، تتزاحم فيها الأمم ، وتختلط الحدود ، وتتداخل القوميات ، وتتشابك المصالح والمواصلات ؛ فلا يمكن أن تستقر العلاقات بين الدول على حال واحدة إلى أجل طويل . وأوربا لها مصالح فيما وراء البحار ، تطمع ألمانيا ، وهى الدولة الكبرى التى تتوسط القارة ، فى أن تنتزع السيطرة عليها من بريطانيا التى تقف على باب القارة ، وتحتكر السيطرة على طرق البحار ، وموارد كثير من مناطق النفوذ والمستعمرات . وقد استغرقت ألمانيا بضع سنوات قبل أن تفيق من صدمة ١٩١٨ ؛ ولكن نهوضها كان أسرع كثيراً مما تصور أكثر الناس فى ذلك الوقت . وسرعان ما أدرك الحلفاء أن ألمانيا قوة لايمكن كبتها ، كما لايمكن تنظيم أوربا تنظيما مجدياً بدونها ؛ فكانت اتفاقات لوكارنو فى عام ١٩٢٥ ، ودخول ألمانيا فى عصبة الأمم . ومع ذلك فلم يكن من المعقول ولا الطبيعى أن ترضى ألمانيا بوضعها هذا ، وأن تقنع بما تركت لها معاهدة فرساى من مجال حيوى مبتور الأطراف مقصوص الجوانب ، وهى الأمة التى تستشعر ، من مواردها فى الثروة والرجال ، ومن موقعها الجغرافى ومكانتها فى النهضة الأوربية الحديثة ، مايؤهلها لأن تتزعم القارة . ولذلك كله مالبثت خطط ألمانيا أن برزت من جديد ؛ وأراد قادتها هذه المرة أن يكون وضع خططهم على أساس من الدراسة والتقدير أكثر عمقاً وأبعد مدى مما حدث فى العهد القيصرى ؛ فرأينا النازية الحديثة تضع نصب أعينها عدة أمور : أولها حسن التنظيم والتربية فى الداخل حتى لا تتكرر مأساة الثورة الداخلية التى جلبت فى نظرهم هزيمة ١٩١٨ ، ثم توطيد نفوذ ألمانيا فى القارة ذاتها حتى لاتشغل الدولة نفسها بحروب محلية عند مايحين وقت الكفاح العالمى ؛ ولذلك سعى الرايخ حثيثاً فاستعاد أراضيه فى السار ، ووحّد مابين ألمانيا والنمسا ، وضم جانباً من تشكوسلوفاكيا ، وعمل جاهداً لاستعادة دانزج وأجزاء معينة من بولندة ، ولو أنه لم يوفق لكل ما يريد . كذلك رسم قادة النازى خطتهم على ألا يحاربوا فى جبهتين أو أكثر فى أوربا أو خارجها إلا مضطرين تحت قهر الظروف . ذلك أنهم قدروا أن قوة ألمانيا فى تماسكها كتلة واحدة تضرب فى اتجاه موحد . ومع ذلك فقد قدروا للظروف احتمالاتها ، فكسوا ألمانيا بشبكة من الطرق الجيدة ، وأعدوا عدتهم بل اتخذوا عتادهم من النوع الميكانيكى

السريع الحركة والذى يسهل نقله من ميدان إلى ميدان ، ووضعوا خطط ما أسموه بالحرب الخاطفة ، تلك التى تمكنهم من الضرب يميناً أو شمالا بأسرع ما يكون ، والتى يتحول معها القتال من حرب مواقع إلى حرب حركة . وهم فى ذلك كانوا قادة ومنظمين عسكريين من طراز جديد ممتاز . ولكنهم للأسف — أو لحسن الحظ — لم يقدروا عوامل أخرى ؛ منها أن هذا النوع من القتال السريع يقتضى الوصول إلى نتائج فاصلة وحاسمة فى أقصر وقت ممكن ؛ وأن الخطة الخاطفة إن أخفقت فى الوصول إلى غايتها كاملة كانت عرضة للانهيار ؛ لأن عامل الزمن يكون على الدوام فى الجانب الآخر وضد صاحب الحرب الخاطفة . وقد أدرك أعداء الألمان من البريطانيين والروس هذه النقطة إدراكاً عميقاً ، وإن قصر عن إدراكها الفرنسيون . فما إن لمح البريطانيون منفذاً إلى إطالة الحرب فى أية صورة حتى نفذوا منه ؛ وما إن رأى الروس وسيلة إلى تشتيت جهد الغزاة من الألمان والمصابرة لهم لإطالة النضال يوماً واحداً حتى عمدوا إليها . وهكذا كان الألمان مقامرين فى حربهم وفى خططهم ؛ قد ركزوا كل قواتهم فى اندفاعات خاطفة كان من الجائز أن تصل بهم إلى نتيجة فاصلة ، ولكنهم لم يقدروا أن أى تعطيل أو انحراف عن الوصول إلى الغاية المحددة فى الوقت المحدد معناه أن السهام تطيش . . وويل لمن تطيش سهامه فى حرب حديثة يتكاف فيها إعداد السهم من القوى والموارد ما لا سبيل إلى تعويضه !

كذلك أخطأ الألمان وأنصارهم فى تقدير بعض العوامل الجغرافية الكبرى ، التى كان لها أعمق الأثر فى تحديد مجرى الحرب ، والتى كان ينبغى أن يحسبوا لها حسابها وأن يجعلوا لها من القيمة أكثر مما فعلوا . وأول هذه العوامل أن ما يقارب ثلاثة أرباع سطح الكرة يغطيه الماء ، وأن من يريد أن يتسلط على شؤون هذا الكوكب واتصالات سكانه بعضهم ببعض ينبغى أن تكون له سيادة البحر ، وأن يسيطر فوق ذلك على مواقع وقواعد بحرية حصينة على طول طرق المواصلات ؛ فإذا لم تتيسر له هاتان الميزتان وجب أن يرسم خطته على أن يحصل منهما على أكبر قدر مستطاع . وقد يظهر أن الألمان النازيين أدركوا هذه الحقيقة إدراكا ما ؛ ولكنهم على كل حال قصروا دون إدراكها على وجهها الكامل الصحيح ، وأرادوا أن يستعيضوا عن قصورهم من هذه الناحية

بقوة الجو ، التى أضافت عنصراً جديداً فى الحرب الأخيرة ، ولكنها لم تغير الحقائق الجغرافية الثابتة . وقد رأينا النازيين فى مطلع الحرب فى الجبهة الغربية ، أى فى صيف عام ١٩٤٠ ، يحتلون شواطئ أوربا الغربية على نطاق أوسع كثيراً مما فعلوا فى الحرب السابقة ؛ فهم قد احتلوا النرويج والدانمرك وسواحل هولندة وبلچيكا وسواحل فرنسا الغربية كلها حتى حدود أسبانيا الموالية . وكان قصدهم من وراء ذلك أن يقفوا فى مواجهة بريطانيا على طول الساحل ، فتتخذ غواصاتهم وطائراتهم قواعدها فى كل مكان ، تشن الغارة وتبعث الرعب فى البحار المحيطة ببريطانيا ، كما تضاعف الصعوبات أمام الأسطول البريطانى فى محاولته ضرب الحصار البحرى على القارة الأوربية . ولكن الألمان لم يدركوا أن هذه الخطة لا يمكن أن تنجح وأن تؤتى نتيجتها إلا إذا صحبتها — بل سبقتها — خطة أخرى ترمى إلى إنشاء أسطول بحرى يناظر الأسطول البريطانى المرابط حول الجزر البريطانية ويكون كفؤاً لمنازلته فى عرض البحر . فقد ثبت أن الأسطول الألمانى بتكوينه الذى كان عليه عند قيام الحرب كان مضطرا إلى الالتجاء معظم الوقت فى موانيه وقواعده أو قرب السواحل التى تحميها الطائرات ؛ وهو ، فيما دون الغواصات ، لم يساهم كثيراً فى ضرب الحصار وتضييق الخناق على بريطانيا ، التى تابعت قوافلها البحرية سيرها . وجاهد الألمان وكابروا طوال سنوات ثلاث كان عامل الزمن فيها حليف بريطانيا ، حتى انتصرت هذه الأخيرة فى موقعة الإطلنطى ، وهى الموقعة الكبرى التى امتدت بطيئة خلال عامين بل ثلاثة على سطح المحيط ، وتقرر فيها لمن تكون سيادة البحار وما يتبعها ويترتب عليها من سيطرة عالمية .

وقد يختلف العسكريون فى تقدير النتيجة لو أن هتلر تقدم وغزا بريطانيا عقب نصره الخاطف فى صيف عام ١٩٤٠ ، ولكن الحقيقة التى ينبغى أن نعترف بها هى أن هتلر لم يكن له من أساطيل البحر وعدته ما يسمح له بغزو بريطانيا إذ ذاك ، وإلا لم يتراجع عن ذلك . ويظهر أنه جرب قوة الجو ، فكانت موقعة بريطانيا الجوية فى أواخر الصيف وأوائل الخريف من عام ١٩٤٠ ، فجاءت نتيجتها مثبطة للهمة مقعدة للعزم ، واضطر هذا الفاتح الذى كانت الطبيعة أوسع من أن يشملها حسابه ، وأفسح من أن يحيط بها تقديره ، اضطر إلى أن يتواضع تواضعاً لم يكن بد من أن يجر وراءه الهزيمة يوماً ما . فبريطانيا رأس

الحرب المدبر ، ومصنع الحرب الدائب على الإنتاج ، وقاعدة الحرب التى لا بد أن يتجمع فيها من القوة والسلطان ما يؤذن بغزو القارة من جديد . وسرعان ما انقلب الوضع فى الميدان الغربى من هجوم من ناحية ألمانيا ، إلى قعود ثم دفاع . وكان على ألمانيا إذ ذاك أن تحصن ذلك الشاطىء الطويل ، الذى امتد آلاف الكيلومترات ، والذى انقلبت مزية الطول فيه ، فصارت الآن على الألمان بعد أن قدر النازيون أن تكون لهم .

وفى غزو الميدان الغربى وإعادة فتح الجبهة الغربية تعلّم البريطانيون من درسهم السابق فى الحرب الماضية ؛ فهم لم يعمدوا هذه المرة إلى غزو القارة إلا بعد أن تأكدوا من أن قوتهم وقوة حلفائهم تبلغ أضعاف قوة العدو . ذلك أنهم لم يريدوا أن تفتح الجبهة قبل أن يكمل الاستعداد ، فتنقلب الحرب فيها إلى حرب خنادق يصح أن تطول إلى سنوات ، كما حدث فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ عندما كان الحلفاء يُعِدّون فرقهم ثم يبعثون بها إلى الميدان واحدة إثر أخرى فيحصدها الموت أولا فأولا ، وتلتهمها النيران قبل أن تصيب نجحا يذكر . ولقد تجلت شخصية تشرشل وواسع خبرته كرائد حرب وواضع خطة فى أنه مارس فى هذه المرة ضبط النفس وقاوم إلحاح أعدائه بل حلفائه ، لا سيما الروس منهم ، فلم يفتح الجبهة الثانية فى عام ١٩٤٢ ، ولا فى عام ١٩٤٣ ، وإنما انتظر حتى تم استعداده ، واستعداد الأمريكيين بنوع خاص ، فى عام ١٩٤٤ وتمسك قبل ذلك بأن يكتفى حلفاء الغرب بحملة إفريقية الشمالية ، ثم بمناوشات الميدان الجنوبى ، حيث كانت إيطاليا أضعف نقطة فى استحكامات المحور وقلعة أوربا المحورية .

فأما الحقيقة الجغرافية الثانية التى لم يقدرها النازيون حق قدرها ( كما لم يقدروا قيمة الاستعداد البحرى الشامل ) فهى أن مسافات اليابس ينبغى أن يحسب حسابها على وجه دقيق ، وأنه كلما طالت المسافات صعب الاتصال واستنفدت الطاقة البشرية . وأوربا كما نعلم قارة تضيق فى الغرب ولكنها تتسع كلما اتجهنا نحو الشرق ؛ ولذلك فإن الألمان كانوا كلما توسعوا نحو الشرق فى الميدان الروسى اتسعت أمامهم المساحة وازداد طول الميدان ، حتى جاء وقت امتدت فيه جبهتهم من فنلدة فى الشمال إلى البحر الأسود والقوقاز فى الجنوب . واتساع الجبهة هذا معناه صعوبة التركيز فى الهجوم ، الذى بدأ قويًّا مركزاً ثم

وق فى قوته وتهادى فى سرعته وتراخى فى اندفاعه ، حتى أصبحت الجبهة « خطا » رقيقاً ، لا يصلح لمتابعة الهجوم ، بل لا يقوى على الثبات والدفاع . والواقع أن الطبيعة الجغرافية للميدان الروسى لم تكن لتعين على نجاح غزو يأتى من الغرب ؛ لأن جهود النازى تتشتت وتبعثر كلما توغل نحو الشرق ؛ وذلك بالطبع فى مصلحة المدافعين . أما إذا جاء الهجوم من الشرق ، فإن قوى الغزاة وأجنحة جيوشهم تتجمع وتتركز ويقابل بعضها بعضاً ويسند بعضها بعضاً كلما توغلت نحو الغرب . ولعل هذا هو السر الأكبر فى أن هجوم الروس المضاد بدأ فى شعب متفرقة ، لاقى بعضها بعضاً حتى بلغت غايتها متساندة متكاتفة ، على حين تفرقت ريح الألمان وطاشت سهامهم فى هجومهم المبعثر نحو الشرق .

والحق الذى تدل عليه كل القرائن أن هتلر وأعوانه عندما قرروا غزو الروسيا فى صيف ١٩٤١ لم يحسبوا للمسافات حسابها الدقيق ، ولم يحتاطوا لظروف المناخ والطبيعة الجغرافية إذا لم يتم النصر فى خلال أشهر أو أسابيع معدودات ، كما كانوا يقدرون — فيما يقال — . وقد دفع قادة الحرب الهتلرية والمسئولون عن خططها ثمن ذلك التقدير الخاطئ أرواحاً كثيرة بلغت عدة ملايين من الجانب الألمانى وحده ، وجعلت من ذلك الميدان الشرقى طاحونة الحرب الضروس التى كلفت الإنسانية من الأرواح أضعاف ما كلفها الميدان الغربى ، الذى قصد به فى أول الأمر أن يكون ميدان الحرب الأساسى .

وأما الحقيقة الجغرافية الثالثة التى غفل عنها المحوريون ، فهى أن الحرب العالمية مهما اختلفت أساليبها واتسعت ميادينها وتعددت جبهاتها ، لابد أن ترتبط فيها الخطط ، وأن يُنسّق الإشراف على تنفيذها فى مختلف الميادين والجبهات . ومع ذلك فقد ركز الألمان جهودهم أول الأمر فى ميدان واحد أو ميدانين اوربيين ، وغفلوا أو تغافلوا عما وراء ذلك من ميادين . فقد سيطرت عليهم فكرة الحرب فى ميدان واحد ، وتجنب الحرب فى ميدانين فى آن واحد ، إلى درجة ملكت عليهم تفكيرهم فى غير ذلك من فنون الحرب ومقتضياتها وأحكامها . ولذلك قد غفلوا عن ميدان إفريقية الشمالية أشهراً متلاحقة بعد دخول إيطاليا الحرب إلى جانبهم حتى دفعوا ثمن إهمالهم غاليا فى النهاية . ذلك أنهم تركوا الإيطاليين يحاربون حربهم فى إفريقية الشمالية والشرقية حتى ضعفت قواعدهم وتضعضعت مراكزهم فى الحبشة بصفة خاصة ،

وحتى تمكن البريطانيون من أن يثبتوا أنفسهم فى مراكز قيادتهم وقواعدهم الهامة فى مصر وشرق إفريقية بل وفى الشرق الأدنى أو الأوسط عامة. وبعد أن تم كل هذا تنبه الألمان والتفتوا إلى حليفتهم، وبعثوا بروميل ومدده إلى شمال إفريقية. ولكن موقف البريطانيين كان قد أصبح من الثبات، وجناحيهم الجنوبى (الحبشى) والشرقى، كانا قد أصبحا من الأمان بحيث استطاعت قواتهم وقوات حلفائهم الثبات أول الأمر ثم الاندفاع آخره، حتى اكتسحت مواقع المحور فى شمال إفريقية، وبلغ الحلفاء إيطاليا، على نحو ما هو معروف.

وقد يحسن هنا أن نشير إلى ارتباط الحرب فى كل من شمال إفريقية وجنوب الروسيا. فقد التفت الألمان فيما يبدو إلى الشرق الأوسط ولو متأخرين، ولكنهم بدلا من أن يسعوا إليه مباشرة عن طريق اليونان والدوديكانيز ثم لبنان وسوريا والعراق، أرادوا أن يبلغوه دائرين فى حركة التفاف مزدوجة؛ فمدوا ذراعاً إلى الروسيا الجنوبية والقوقاز ومدوا الأخرى إلى إيطاليا وشمال إفريقية وصحراء مصر. ولكن الذراعين كانتا من التباعد واختلاف الظروف بحيث لم يكن مستطاعاً رسم خطة مشتركة توحد بين حركات الجيوش المهاجمة فى كل منهما، وتنسق تلك الحركات بحيث تستطيع إحدى الذراعين أن تعين الأخرى فيما قد تتعرض له من شدة أو محنة، شأن كل ذراعين تعملان معاً ومن أجل غاية واحدة. ولعلها لم تكن مجرد مصادفة أن تنكسر إحدى الذراعين فى ستالنجراد عندما انكسرت الذراع الأخرى فى العلمين. ولقد كانت هاتان الموقعتان على أبواب الشرق الوسيط، نقطة تحول قاطع فى مجرى هذه الحرب العالمية.

وفوق ذلك فإن عدم ارتباط الخطط المحورية فيما بينها قد تمثل فى ناحية أخرى لا تقل خطورة عما سبق . . . ذلك أن اليابان حاربت إلى جانب المحور من أجل غاية مشتركة هى تحطيم الديمقراطية وسيطرتها العالمية، ولكنها — فوق دخولها الحرب متأخرة شيئاً ما — حصرت نفسها فى ميدانها وعملت من أجل مصالحها الخاصة. وقد كانت مقتضيات الحرب الحقيقية تحتم أن تسعى اليابان لتتصل بالمحور فى الغرب عن أى طريق؛ فتهاجم الروسيا فى الشرق مثلا، وبذلك تخفف الضغط عن الألمان فى ميدانهم الشرقى، وتسعى لأن يلتقى جناحا المحور أو يتقاربا على الأقل فى أرض الروس. أو توجه هجومها البحرى فى ناحية الهند وشرق إفريقية وجزيرة مدغشقر وبحر العرب، على أمل أن تقترب شيئاً ما

من قوات المحور الممتدة نحو البحر المتوسط والبحر الأحمر ، أو أن تقطع مواصلات الحلفاء البحرية فى غرب المحيط الهندى وبين جنوب إفريقية والهند والبحر الأحمر على الأقل . ولكن الذى حدث هو أن اليابان فضلت أن تعمل منفردة ولحسابها الخاص فى ميدان المحيط الهادى ؛ وأن تركز قواتها فى احتلال جزر الهند الشرقية وجزر المحيط الهادى ، ثم تتجه نحو استراليا بدلا من أن تتجه نحو المحيط الهندى . وقد شتتت اليابان بذلك قواتها فى اتجاه لا يقربها من قوات المحور ومواقعها فيما وراء البحار . والواقع أن الحلفاء قد أفادوا من هذا الخطأ إلى أبعد حد ، حتى إنهم استطاعوا أن يرسموا خطتهم فى مرحلتين : أولاهما تقضى بالفراغ من الميدان الأوربى بتركيز الهجوم على إيطاليا وألمانيا ، مبتدئين بالأولى لأنها أضعف حلقات المحور ، حتى إذا ماانتهوا من الفاشيين والنازيين فرغوا — وفرغت معهم الروسيا ذاتها آخر الأمر — لليابان فحطموها على انفراد .

نخرج من هذا الحديث بأن قصة الحرب العالمية ، كما عرضناها فى هذه السنوات الثلاثين أو الأربعين الأخيرة ، قصة تستحق الدراسة والتفكير وإنعام النظر . وكلما تعمقنا فى دراستها برزت لنا نواحيها المختلفة ، واتضح لنا ارتباط نتائج النضال فيها بحسن تدبير الإنسان ومحاولة الاستفادة من الظروف الجغرافية العامة . والحق أن الحرب لم تعد مجرد قتال بين أقوياء تجمع لهم من القوة فوق ما يستطيعون التحكم فيه ، وإنما هى قد غدت علماً وفناً على السواء ، بحيث يستحيل على جاهل بعد اليوم أن يحارب بنجاح ، وبحيث لا يكتب الفوز بعد اليوم إلا لأولئك الذين يفكرون ويرسمون ويفيدون من عبر الماضى ، ويستجيبون لما تقتضيه ظروف البيئة التى يحاربون فيها . وويل لأولئك الذين يندفعون بعد اليوم فى حرب لا يدركون الغاية منها إدراكا صحيحاً ، ولا يحسنون ترسم الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه .

وقد يفيدنا وينير سبيل المستقبل أمامنا أن نحاول الخروج من هذه الحرب المنتهية بدرس أخير . ذلك أن هذه الحرب بجولتيها إنما قامت فى الأصل على أساس النزاع بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية . وقد أخفق الأولون لأنهم لم يرسموا خططهم كما ينبغى أن ترسم ، أو هم قد رسموها متأثرين

بعامل التحدى والاستفزاز بدلا من أن يتأثروا بعامل الفكر الرصين والترسم الهادئ لظروف الميدان . وقد نجح البريطانيون لأن خبرتهم فى الاحتكاك الدولى وسياسة القتال العالمى كانت أطول ، ولأن استجابتهم لظروف الطبيعة ومقتضياتها كانت أقوى ، ولأن عامل الزمن كان على الدوام فى جانبهم . . .

ولكن الشىء المهم الذى انتهت إليه هذه الحرب هو أن البريطانيين قد نجحوا هذه المرة فى إزالة عدوهم أو إبعاد خطره المباشر إلى أجل طويل . وقد يكون ذلك خيراً بالنسبة لبريطانيا ومستقبلها ... ولكنه قد لا يكون كذلك ، فقد كانت ألمانيا على الدوام عامل توازن فى قلب القارة الأوربية ، كما كانت مصدر خطر تألّب لمكافحته أهل القارة فى الشرق والغرب . ففى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ مثلا اتفقت روسيا القيصرية ، رغم كراهيتها للحرية والديمقراطية ، مع بريطانيا التى كانت مهد الحياة النيابية ومبعث الديمقراطية التى تستند إلى الحرية . وفى حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ اتفقت روسيا البلشفية مع بريطانيا الرأسمالية ، فكان الخطر الجرمانى باعث الوحدة بين متناقضات القارة الأوربية . . بل كان نطاق الأمان الذى يعزل بين متناقضات لا يمكن إلا أن تصطدم أشد اصطدام إن هى تلاقت وجهاً لوجه ! والآن وقد زال هذا الخطر الجرمانى المشترك ، أو كمن إلى أجل طويل ، فهل ينتهى بزواله دافع الوحدة بين طرفى القارة ؟ وهل يختفى ذلك العدو المشترك فلا يجد الروس الصقالبة ، أو لا يجد الإنجليز السكسونيون أمامهم عدوًّا آخر غير حليفهم القديم ؟ وهل يجىء القدر لأوربا أن تنقسم الآن إلى معسكرين اثنين فى الشرق والغرب ، بعد أن كانت منقسمة إلى معسكرات ثلاثة فى الشرق والوسط والغرب ؟ وهل يكون التصادم بين طرفين أشد عنفاً ، وأكثر تخريباً ، وأدنى إلى الفناء والإفناء مما كانت عليه الحال بين أطراف ثلاثة ، يسهل أن يتفق اثنان منها على الثالث ، فيجىء النصر قبل أن يستحيل القتال إلى حرب فناء ؟ وهل يجىء فى أعقاب ذلك كله أن يختل توازن القارة وتترنح مدنية أوربا ، أو تدك معالمها ، فيداول الله الأيام بين القارات كما يداولها بين الناس ؟ أسئلة كثيرة قد لا يستطيع أن يجيب عنها إجابة صحيحة سليمة غير الزمن ! ولعل أبلغ حكم الله سبحانه وتعالى فى الخليقة أن الزمن يسير !

سليمان حزين